

مفهوم المرأة في فكر ابن عربي

د. حسين الصديق

1- إشكالية البحث؟

تمهيد:

الهدف من هذا البحث تمجيد الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، فإن مكانته في الفكر ليس العالمي عامة والعربي الإسلامي خاصة تغنيه عن ذلك، وإنما هو الحاضر. فأنا أعتقد أن أية دراسة للتراث أو للواقع ستكون عبثية وعقيمة إن لم يكن المقصود منها إيجاد مقياس ومرجعية نحتكم إليهما في إعادة تقييمنا لواقع الأمة العربية والإسلامية اليوم.

صحيح أن أزمة الأمة العربية والإسلامية اليوم تعود إلى أسباب متعددة، إلا أن أهمها في اعتقادي هو ما تعانيه هذه الأمة من شرخ داخلي وانقسام نتجا عن إهمالها مرجعيتها، وابتعادها عن جوهر ثقافتها التاريخية. لقد تناسينا على سبيل المثال أن القرآن منهج حياة في الدارين، وأصبح في حياتنا مرتبطاً بالموت والعزاء والمآتم، وبافتتاحيات البرامج الإذاعية. كما تجسد ذلك النسيان في أشكال متعددة في العلاقات بين الديني والثقافي والاجتماعي، وبخاصة في العلاقة بين الرجل والمرأة، فلم تعد النساء شقائق الرجال، ولم نذكر سوى أن المرأة عورة كلها. نسينا الأصل الإنساني المشترك في الخلق الأول بين الرجل والمرأة، وأن العقيدة سوت بينهما في مبادئ التكليف، والعمل والعبادات والحدود والمعاملات، وتذكرنا القوامة والتعدد والجلوس في البيت، وحق الرجل على المرأة. ثمسكنا بقوله صلى الله عليه وسلم "ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء"، وتناسينا قوله تعالى: "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة

المصدرين، وهي قراءة تختلف في جوهرها عن قراءة غيره من الفقهاء أو المتكلمين أو الفلاسفة أو أيضاً المتصوفة. وهذا ما أعطاه بحق تميزه الفكري وخلوده.

يتكلم ابن عربي عن المرأة في مواضع عدة في "الفتوحات المكية" وفي "قصص الحكم"، وبخاصة في الفصل السابع والعشرين. ففي الفتوحات يأتي الكلام في سياق الحديث عن النشأة الإنسانية الأولى، أما في القصص فهو في جوهر مفهوم المرأة من خلال ارتباطها وجودياً بالكمال الإنساني.

يبدأ ابن عربي في الفصل الأخير من كتابه "قصص الحكم" حديثه عن المرأة بتقرير الحقيقة الفردية التي هي النور المحمدي، أكمل مجلى خلقي ظهر فيه الحق سبحانه. فهو الإنسان الكامل الذي يتحقق فيه معنى الخلافة في أدق خصائصه.

ولا بد من تلك الحقيقة لفهم صورة المرأة عند ابن عربي من خلال ما يقدمه من تفسير لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "حبيب إلي من دنياكم ثلاث: النساء والطيب، وجعلت قرّة عيني في الصلاة". فعنوان الفصل "قص حكمة فردية في كلمة محمدية" يعني أنه مخصص للكلام على الحقيقة المحمدية، إلا أن جل ما جاء تحت هذا العنوان هو شرح ذلك الحديث. ولا يغير ذلك من مصداقية العنوان، فابن عربي يريد إبراز مكانة المرأة عامة بإظهار علاقتها الوجودية بالكمال الإنساني، المتجسد بالرسول صلى الله عليه وسلم. فلا كمال للرجل من غير المرأة، كما أنه لا كمال للمرأة من غير الرجل، وكل بحسب نسبته من الوجود. فالحديث عند ابن عربي يدور في إطار المطلق، أو في أصل العلاقة بين الرجل والمرأة. ولذلك امتزج في الفصل الكلام على الحقيقة المحمدية، رمز الكمال الإنساني، بالكلام على النساء بالجمع الذي لا فرد له، وبأل الجنسية ليذلل على مجموع النساء وليس على امرأة واحدة.

لقد قام الوجود في أصل النشأة على المحبة. فالمحبة مقام إلهي، وصف الله به نفسه وتسمى بالودود، وجاء في القرآن الكريم فعل المحبة في صيغ متعددة، ليذل على المحبة بين الحق والخلق. فالمحبة أصل الموجودات كما يقول ابن عربي، مشيراً إلى حديث قدسي يشيع بين المتصوفة منسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقول فيه عز وجل: "كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق فبه عرفوني، أو فبي عرفوني"، فالموجودات لم تنتقل من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل إلا بفضل المحبة الإلهية، وبعد تلقيها الأمر حيث كانت في العلم الإلهي جاهزة للكون: "إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون" يس/ 82.

ولعل المشابهة بين الحديثين إنما تكمن في أن الوجود والكمال ارتبطا معاً في الحديثين بالمحبة. ففعل المحبة فيهما فاعله واحد هو الله عز وجل. فقد جاء مبنياً للمجهول في الحديث النبوي، فقال "حُبب" ولم يقل "أحببت"، فالذي حُبب النساء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم إنما هو الله، وهو يعرف أن محبة النبي صلى الله عليه وسلم في جوهره الكامل إنما هي متوجهة إلى الله عز وجل، فوجه محبته إلى النساء ليكون قدوة ولإظهار العلاقة بين الوجود والكمال والنساء.

لأنه كماله في نفسه من حيث ظهوره عنه، فحن إليه، يكمل بمحبته وجوده، فيعرف نفسه في كمالها، فيعرف الله. وجهه بربه بمقدار جهله بنفسه، وجهه بنفسه بمقدار جهله بالمرأة.

"والمراد بالسرب هنا الحق المتجلي بالأسماء الإلهية في صور أعيان الممكنات، لا الحق من حيث هو في ذاته بعيداً عن كل تعين وكل نسبة أو إضافة إلى العالم، فإنه من هذه الناحية غني عن العالمين، منزّه عن كل معرفة وإدراك. أما الحق الذي يُعرف ويُدرَك فهو الحق الظاهر، وليس الحق الظاهر سوى العالم: ونفس الإنسان جزء من العالم بل أكمل جزء فيه"، فمن عرف نفسه عرف ربه بمعنى أنه عرف الحق الظاهر في نفسه. (فصوص 325/2).

2- النشأة

لقد خلق الحق الوجود وما فيه من الجمادات والنباتات والحيوان، وجمع كل هذا للإنسان وهي النشأة الترابية. وقد كانت كل هذه الموجودات بالأمر: "إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون"، على حين أن الإنسان خلقه الله باليد من غير الأمر "قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي" ص/75. فكانت بداية التفضيل على باقي الموجودات. ثم جاءت النفخة الإلهية في قوله تعالى: "وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين" ص/70، فقد صاغ الحق طينة آدم بيديه ثم نفخ فيه من روحه بعد التسوية وجعله خليفة في الأرض، فكان أفضل المخلوقات، أمرت الملائكة بالسجود له وهي لا تسجد إلا لله عز وجل. (الفتوحات 124/1).

لقد خلق الله آدم على صورته ونفخ فيه من روحه فأعطاه بذلك صفة الكمال فجعله كاملاً جامعاً، ولهذا قيل الأسماء كلها، فكان مجموع العالم من حيث حقائقه. إلا أنه سبق، كما يقول ابن عربي، في علم الحق إيجاد التوالد والتناسل في هذه الدار لبقاء النوع، ولذلك فقد استخرج من ضلع آدم حواء، وكانت من الضلع للانحناء الذي في الضلوع لتحنو على ولدها وزوجها. فكان بخروج المرأة منه نقص فيه، وكمال لا يتم إلا بعودة ما فقدته أي المرأة التي هي منه وعلى صورته، تماماً كما كان آدم منه وعلى صورته. وعمر الله موضع خروجها من آدم بالاشتياق إليها، فحن إليها حنينه إلى نفسه لأنها جزء منه، وحنن إليه لأنه موطنها الذي صدرت عنه. (الفتوحات 144/1).

3- المحبة:

خلق الله العباد على صورته ونفخ فيهم من روحه، فحن إليهم واشتاق إلى لقاءهم، فهو يحب العباد وهم يحبونه، فالمحبة في أصل الخلق كانت، ولذلك فقد قامت المناسبة بين خلق الله آدم وخلق حواء منه. فقد ظهر الخالق عينه في مخلوقه بالنفخة الأولى، ثم إنه أخذ منه شبيهاً على صورته سماه امرأة فحن إليها آدم حنين الله إلى عباده. ومن هنا وقعت المشابهة بين خلق الله الوجود وخلق المرأة من الرجل، "فحن الرجل إلى ربه الذي هو أصله حنين المرأة إليه، فحبب إليه ربه النساء كما أحب الله من هو على صورته. فما وقع الحب إلا لمن تكون عنه. وقد كان حبه لمن تكون منه وهو

كماله. ولعل ابن عربي أدرك ما قد يقع في الذهن من مفارقة في المشابهة فقال بعد حديثه ذلك: "تميزت الأعيان بالمراتب فأعطى كل ذي حق حقه كل عارف" (فصوص 219/1). يقول أبو العلا عفيفي: "قد تفهم هذه الجملة بمعنى أن العارف بالله، الواقف على أسرار حقيقة الوجود، يعطي كلا من الحق والخلق حقه، ويميز بينهما.. أي يميز بين ماله وجوب الوجود والغني المطلق عن العالمين، وما له إمكان الوجود والافتقار المطلق. وقد تفهم بمعنى أن العارف يعطي كل موجود من الموجودات نصيبه من الحق كما يعطيه نصيبه من الخلق، أي يدرك في كل موجود أنه حق وخلق معاً: حق من حيث عينه وأصله، وخلق من حيث صورته" (فصوص 334/2).

7-التأنيث في الوجود

وأخيراً فإن ابن عربي يختم صورة المرأة في فكره بتقرير حقيقة كونية لغوية تغلق دائرة وجود المرأة لتتصل ببداية خلق الوجود، وهي أهمية التأنيث في أصل الخلق من حيث المعاني. فقد قدم الرسول صلى الله عليه وسلم النساء على الطيب وقرة العين فجعل مذكراً بين مؤنثين كهو في وجوده. فإن الرجل مدرج بين ذات ظهر عنها وبين امرأة ظهرت عنه، فهو بين مؤنثين كآدم بين الذات الموجود عنها وبين حواء الموجودة عنه (فصوص 220/1).

فالتأنيث في الوجود هو الأصل من حيث المعاني فهو أصل كل شيء والعلة في وجود كل شيء. فأصل الوجود الذات الإلهية، والظاهر في الوجود الصفات الإلهية، وما أظهر الوجود هي القدرة الإلهية أو الإرادة الإلهية. والله أخيراً وأولاً هو علة الوجود وحقيقته (فصوص 1/220)

خاتمة

إن ما تقدم لا يعدو أن يكون عرضاً سريعاً لأهم الأفكار التي وجدناها عند ابن عربي عن المرأة. وهي أفكار تقدم صورة المرأة في حقيقتها الأزلية الإلهية في مقابل الرجل في صورته الأزلية الإلهية. فالمرأة صورة الرجل يرى فيها كمال ذاته، وهي أتم وأكمل مجلى للحق يعرف فيها الرجل ربه، وهي مشابهة له في أصل الخلق من جهة كونهما الإنسان الذي صورته الحق على صورته وجعل منه مجلى له، فهي من هذه الناحية مساوية للرجل. وهي أيضاً رمز الوجود وحقيقته لأنها واجبة لتحقيق معنى الرجل بإيجاد ولد له على صورته يخلفه. وهي أخيراً رمز المحبة الإلهية فيها تتجلى هذه المحبة ومنها تبدأ ثلاثة الحق والرجل والمرأة.

ويمكننا في نهاية البحث أن نصوغ ما تقدم في ثلاثة ثوابت تسود في كلام ابن عربي على المرأة:

- 1-الناصب الأول يقرر أن علاقة الرجل بالمرأة مشابهة لعلاقة الحق بالخلق.
2-والناصب الثاني يقرر أن المحبة بين الرجل والمرأة مشابهة للمحبة بين الحق والخلق.

3- أما الثابت الثالث فيقرر أن الخلق مجلى لله عز وجل وأن المرأة مجلى للرجل في بحثه عن الله فيه.

ويجد السؤال الذي طرح في بداية البحث جوابه. إلا أن ابتعاد الرجل والمرأة/الإنسان/ عن الذات الأولى التي صدرا عنها أنساها جوهريهما وأصل العلاقة بينهما وجعل منهما عرضاً يعيش خاضعاً لقوانين النشأة العنصرية، فأصبحت المرأة اليوم وفي كثير من أنحاء العالم ولا سيما الغربي منه، تعامل معاملة القروء كما يقول مصطفى محمود في كتابه عصر القروء. ويضيف في ص-54 "ولتجد امرأة كخديجة لا بد أن تكون رجلاً كمحمد" صلى الله عليه وسلم.

